

« نائز محترف » وأزمة الجيل العربي

بقلم محمد حيدر

بذلك وحدة روائية تامة . ووحدة الروايتين لا تأتي من وحدة الحوادث او الاشخاص (فهما مختلفتان من هذه الناحية) بل من كونهما تعالجان مشكلة واحدة ، هي : الإنشاق الانساني في شخصية الفرد العربي . اي محاولة الفرد العربي ، الكشف عن المقومات الاخلاقية والقومية والفكرية لكيانه الانساني . فهي اذن مشكلة البحث عن وجهة نظر ، او مبدأ ، يمكن الارتكاز عليه كمنطلق فكري لفهم الوجود . وهي ايضا مشكلة البحث عن قيمة اخلاقية يمكن اعتبارها مقياسا واساسا للسلوك . ويتم هذا عند مطاع عن طريق موقف حاد يعترض الشخصية . وبمجاهاة هذا الموقف تكشف الشخصية عن بئيتها الداخلية من جهة ، وتكتسب مقياس جديدة بواسطة الفعل من جهة اخرى . ذلك ان الشخصية عند مطاع (كما لاحظنا من دراسة اثاره الادبية كافة) هي حصلة بنيانها الفطري ، بتفاعله مع العالم الخارجي . فان الشخصية بذلك لا تكشف عن جوهرها الا بواسطة « موقف متازم » . وبهذا يقف مطاع ، كمفكر ، موقفا متوسطا بين فلسفات الماهية والوجود .

والموقف المتازم ، او المشكلة المطروحة دائما ، هي المشكلة القومية . والذي يدعو مطاع لذلك ، ان التجربة القومية اغنى التجارب الانسانية واكثرها لصوقا بالانسان ، لارتباطها الوثيق به ، كفرد قومي ، وكانسان . هذا بالاضافة الى ما تزخر به القضية القومية من اراث تراكم خلال قرون . وهو اراث املته طبيعة الامة والاعراف والتقليد . والفرد في « التجربة القومية » عليه ان يحدد موقفه ازاء هذا التعارض الحاد والتشابك الفخم من الاحداث .

ان تحديد الموقف ، اي الاختيار ، في تجربة كهذه ، هو ابعده ما يكون عن الاختيار السهل ، او العمل الذي يتم بصورة مألوفة لاثير اي اخراج . انه اختيار حاسم يستلزم من الانسان ان يكشف عن تكوينه الشخصي ، ويختار مصيره بشكل نهائي .

ان المشكلة القومية التي طرحها رواية « نائز محترف » هي الثورة اللبنانية عام ١٩٥٨ - ولكن الرواية ليست تاريخا للثورة باعتبارها « وقائع » ، فال مؤلف لا يعنى كثيرا بذلك . بل يمكن القول بان الوقائع او الحوادث التفصيلية لاتشغل الا مساحة صغيرة من الرواية ، لان الكاتب يحول هذه الثورة الى جملة من المواقف . . . تتفتح بواسطتهما الشخصية الانسانية وتاخذ ابعادها . وعن هذا الطريق يظهر لنا التحول العميق الذي يحياه الجيل العربي فالثورة بذلك تتخطى المفهوم السياسي ، لتصبح مجالا انسانيا لانارة العمق الذاتي للابطال .

« الرواية »

« كريم » نائز قديم . شارك في الثورة الفلسطينية والجزائرية والثورات السورية لمكافحة الاستعمار الفرنسي . ثم شارك في مقاومة المهود الوطنية التي لم تمثل رغبات الشعب بعد الجلاء . وشهد الانقلابات السورية وقاوم عهود الطغيان . وشارك في توجيه التفكير السياسي في البلاد نحو الوحدة . لهذا كله اطلق عليه اسم « نائز محترف » . فهو اذن محترف ثورات . ولكن الرواية لا تطغينا تفاجيل هذه الثورات التي خاضها ، بل تشير اليها مجرد اشارات . وفي الرواية نلتقي بكريم في بيروت ، وقد قصدها للاستجمام . وننتبين من سياق الاحداث انه يعاني مشكلة خاصة : فهو يود ان يعيد النظر في ماضيه الثوري ، ليناقش قيم الثورات السابقة التي

الاثار الادبية العظيمة ، لا يمكن الالام بها بصورة تامة ، بل تظل بعض جوانبها خفية ، وعرضة لتاويلات مختلفة ، وذلك لخصوصيتها من جهة ، ولكنها تشير من المشكلات اكثر مما تتضمنه بالذات . وينطبق هذا على رواية « نائز محترف » لذلك نرى من الطبيعي ان نشير ، الى ان مقالنا هذا لم يسك كلية بالرواية . فهو وجهة نظر اكثر مما هو دراسة شاملة . وكون الرواية لا تكشف تماما للقارئ ، ناجم عن عمق شخصياتها التي تمنع على الاحكام النهائية ، وتستعصي على الفهم السطحي ، والسريع . فهي ليست مما يفسر بمعطياته الخارجية ، او بالفعل الذي تقوم به . ذلك ان الشخصية الانسانية عند مطاع (وفي كل رواياته وقصصه) اعرق من ان تؤول بسلوكها العلني ، او ان يتمكن القارئ او الناقد كشف اغوارها الحقيقية . انها تظل مغلقة بنسوع من الغموض (لا التعقيد) يجعلها بنجوة عن الكشف النهائي .

والقاريء - كمثال على ذلك - اذ يشعر بحرية الشخصية التامة عند مطاع ، فانه ليشعر بالمقابل ، وبطريقة غير مباشرة بان هذه الشخصية محكومة بقدر خفي ، هو العنصر الغيبي ، السري ، في الشخصية . هذا العنصر الذي يحفظ لها قيمتها الاصلية ، ويجعلها غير قابلة للتاويل القاطع ، النهائي . والقارئ ايضا ، اذ يجد نفسه قادرا على فهم احدي الشخصيات ، من خلال « موقف » ما . . . يجد نفسه احيانا ، عاجزا عن فهم هذه الشخصية بالذات . واذا كانت اكثرية الشخصيات التي عرضها مطاع من هذا النوع ، فان شخصيات « نائز محترف » تجسد هذه الصفة اروع التجسيد . ان اثارنا وتاويلنا لهذه الشخصيات قد يتعارض كليا او جزئيا مع ميول او تفكير قارئ اخر ، ولكن وجود مثل هذا التعارض ، امر طبيعي . الم يزل هاملت ، وشخصيات دوستوفسكي موضع خلاف الى اليوم ؟

ان المقال يعبر عن رأينا الادبي في الرواية ، ولكننا نخالف الكاتب في بعض ارائه القومية . ولقد اثرتنا عدم التعرض لهذا الخلاف ، كي لا يتحول المقال من « رأي ادبي » الى مناقشة في السياسة ، اللهم الا حيث الامر . والذي شجعنا على ذلك ، ان هذا الخلاف في الرأي حول القضايا القومية ، لا يستدعي تغيير رأينا الادبي في الرواية .

✱

قبل « نائز محترف » نشر مطاع صفدي روايته الاولى « جيسل القدر » والروايتان معا ، تؤرخان للجيل العربي المعاصر من الشباب ، وهو جيل قلق مهزوم ، يعاني ازمة البحث عن الذات . واكثر ما تتضح هزيمة هذا الجيل ، في تجربتين : التجربة القومية التي خرج منها بسلبية شبه تامة ، وقد فقد اهتمامه بالمصير . والتجربة الوجودية ، وتتميز بشعور الفلق والتشتت ، والفجر والسأم . وهي سمات نفسية لهذا الجيل . وقد انعكس هذا الوضع على الادب ، فعبر الابداء الشباب عن ازمته واماساتهم . ومن بين الابداء كافة ، ينهض مطاع صفدي كاقوى معبر عن ازمة الشباب العربي . ولقد سبق لطاع ان طرح القضية العربية بعمق في مجموعته القصصية الاولى « اشباح ابطال » وفي مسرحيته « الاكلون لحموم » ثم خطا خطوة اوسع بروايتيه المذكورتين . وفي رأينا انه اول روايتي عربي عرض قضية جيله بشمول كلي ، وبوجهيهما : القومي والانساني . وهو لا يفصل بينهما ولا يعزل احدهما عن الاخر ، بل يتناولهما كظهر لقضية واحدة ، هي قضية الانسان العربي الجديد . ان « نائز محترف » امتداد طبيعي لجيل القدر ، فهما تشكلان

عجري . وكانت امها قد قدمت الى بيروت كرافضة ، حيث تزوجها الاب . والاب من الجبل اللبناني ، انحدر الى المدينة والتحق بعالم المال والتجارة والانحلال العائلي والاخلاقي ، ففسر بذلك جذوره الطبيعية . وقد ماتت الام منتحرة اثر نوبات نفسية . ونشأت « زاره » مع اختها في الدير ، واستجابت لهذا الجو الديني اعمق استجابة ، الامر الذي كان له بالغ الاثر في شخصيتها بحيث لم تستطع ان تتخلص منه فيما بعد . ولكن هذه العوامل الخارجية لا تشكل تبريرا للشغرة القائمة في شخصيتها ، والتي تتجلى بنوع من القصور عن التكيف : ان العجز المسبق في شخصية « زاره » يتجلى في عدم استطاعتها ان تستبدل شعورهاها بالفربة الروحية في العالم ، باية علاقة انسانية او باي تفكير عقلي . ولذلك لم تستطع ان ترتبط باي مكان ، بل كان لها رغبة دائمة ، هي التجوال في العالم المكاني من جهة ، والانكفاء الى الاجواء الصوفية المطلقة من جهة ثانية .

ان « زاره » هي الشخصية الحية في الرواية ، التي تظل لهسا فرديتها ، والتي تسمى دائما للفوز بقدرها الخاص . ولكن انشاق كريم في حياتها كان عامل اثاره شاملة ، فهو دعوة الى تخليها عن شخصيتها الفيسية الموهومة . والواقع ان العلاقة بين كريم وزاره ، تؤلف احسد الاركان الاساسية للرواية ، رغم ان هذه العلاقة تجري بصورة مستورة خلال مختلف المواقف والاحداث . حيث يشعر القاريء من حوارهما ، بان بينهما من الصلات اكثر مما تعطيه الاحداث الروائية . اما متى حدث ذلك ... فهذا مالا تعطيه الرواية على الاطلاق .

ان كلا من كريم وزاره ، هو بمثابة « التقيض » للاخر : ان زاره تمثل العذراء التي ترتعب من كل دنس مادي ، لذلك تظل خارج التجربة دائما ، رغم وقوعها في برائتها مرة ! وهذا هو سبب تردها المستمر لحالة العجز ، وعدم الاستطاعة التي تعانيتها كلما كادت ان تنجح في اقامة علاقة واقعية مع رجل . اما كريم ، فهو يعيش في الملاهي الليلية بكل مافيه من تجارب ، ودون ضجيج وجداني . وزغم هذا التناقض الظاهري بين الموقفين ، فانهما يلتقيان في نقطة اساسية تتعلق بالوجود الانساني ، هي : الرغبة في الكشف عن معنى : ان زاره تحاول ذلك خارج حدود التجربة ، عن طريق التأمل المعزول ، بينما يحاول ذلك كريم عن طريق المعاناة الحية ، وتعميق الاحداث والتجارب حتى القاع . واذا كانت نقطة الالتقاء الاولى بينهما هي : « الرغبة في ... » فان نقطة الالتقاء الثانية هي : « الخوف من ... »

وهذا الخوف بالنسبة لزاره ، خوف بدائي غريب من تلوث البراءة الانسانية . اما بالنسبة لكريم : فهو خوف من الوقوع في الانحلال . الخوف من الاستسلام الكلي للتجربة ، بحيث تسمح هدفا بحد ذاتها لا وسيلة . اي : عدم القدرة على تخطيها والاستقلال عنها ، وبذلك يكون قد وقع في انحلال فعلي يتناول السلوك والفكر .

فلنا ان العلاقة بين كل من كريم وزاره ، كانت خفية طوال الدوامه ، او انها تقبع في القاع العميق من الاحداث . والواقع ان تطور هذه العلاقة ، ظل يختم في السر دون ايصاح علني ، وكل تطور كان ينمو في لا شعور كل منهما ، كما يحدث تماما في الحياة ، ولذلك لا تطلعتنا الرواية على مراحل هذا النمو . اما رغبة زاره في كريم ، فانها تبلغ ذروتها وشكلها العلني ، خلال الزيارة التي قاما بها ، برفقة مهدي ، الى الراهب في الجبل . حيث يشعر كل منهما انه ضالة الاخر . ومع ذلك فان الالتقاء الحقيقي بين الاثنين لا يحدث : لان « كريم » يرى من المحتم عليه ، الا يرتبط بشيء مادام في موقف « اعادة النظر » . عدا ذلك ، فهو مؤمن بان تحول زاره ليس اصيلا . وتدافع زاره عن اصالة هذا التحول ، ولكن الاحداث تثبت صدق حدس كريم ، ذلك انها عادت الى عزلتها النهائية في الدير . لان خيبتها مع كريم ، دفعتها ان تعطي جسدها لانسان ما . . . ولمجرد انه رجل . وكان هذا الشخص احد ابطال الرواية ، وهو شباب عراقي اسمه « مهدي » . ومهدي كما ترسمه الرواية ، اقرب الى البدائية والنوحش الفطري . وربما ارادت بذلك ان تلتحم بجسد مليء بالفريزة الفجة ، منتقمة من كريم ، ذلك « الجسد » الملف بانسانيته الخاصة ،

اشترك فيها . والفرض من ذلك ، الكشف عن جدوى حياته الشخصية ، وحياة الانسان الثوري عامة . وخلال فترة « اعادة النظر » تندلع الثورة اللبنانية ، وهكذا يجد نفسه في موقف ثوري يفرض عليه الاختيار . ولكن الاختيار الجديد يختلف كليا عن مواقف الاختيار التي كانت تدفعه للاشتراك في الثورات السابقة : فقد شارك فيها على انها (كما بدت له حينذاك) قدر طبيعي للجبل العربي . اما الان فقد تخطى هذه المرحلة واصبح في مرحلة « اعادة النظر » التي تعني : الاستقلال الكلي عن تأثير خارجي ، بغية الكشف عن الذات . ولما كان « كريم » قد قطع ، وبكثير من التعرية القاسية ، شوطا بعيدا في ميدان اعادة النظر ، فقد اصبح الاختيار الراهن بالنسبة له ، اشبه ما يكون بالعلة الزمنة والهلم المقيم . ولكنه ، وبدلا من الاختيار المباشر ، يلجأ الى طريق اخر : ان انبثاق الثورة ، وما ينجم عنها من خلق مواقف ثورية لدى المشتركين فيها ، وهم تماذج جديدة من الثوريين الشباب ، سوف يعطيه مجالا يساعده على تشخيص معاني تجربته الماضية ، تحت ضوء تجربة راهنة مشابهة لتجربته تلك . وهكذا يتحول من البحث في الماضي ، الى معايشة حاضر من شأنه اغناء تجربته بمعان جديدة ، بحيث تصبح مشكلة اعادة النظر التي يعانيتها ، التكاملا حقيقيا مع واقع ثوري حي . والمؤلف ، انسجاما مع موقف البطل ، وهو اعادة النظر ، حرص على تقديمه في دور « الراوي » او المشاهد ، بحيث يلوح لنا انه زاوية للاحداث فحسب ، حتى لتبدو الرواية وكأنها خلت من شخصية رئيسية ، وانها تخضع لسطان قوة خفية تحرك الاشخاص وترسم الاحداث . ولكن الواقع ان « كريم » يظل البطل الحقيقي للرواية .

ان موقف « اعادة النظر » الذي يلتزمه « كريم » خلال الرواية ، ينعكس على العلاقات الانسانية بين الشخصيات وينفذ الى صميم انفعالاتهم ، حتى لتغدو هذه التسمية بمثابة العنوان الداخلي للرواية ، والنافذة التي يطل من خلالها الكاتب على اعماق شخصياته . حيث نرى هذه الشخصيات كافة ، وقد تقاذفتها الافكار والرغبات ، بحيث لا نلمس لديها « تينا » حقيقيا مخلصا لاي موقف . لقد التزم «كريم» موقفه لتصفية الحساب مع نفسه ، فاذا بالموقف هذا يغدو بمثابة الفخ الذي يطبق على كل فرد اخر ، ويتحول بشكل شعوري او لا شعوري الا كابوس حياتي بالنسبة لكل فرد ، لوضعه امام اعماق تساؤل كان يفر منه ، وهو : من اكون ؟ ما جدوى عملي ؟ ما هي اسسه ؟ وبذلك يواجه كل فرد ازمته الخاصة بوضوح ، ولكن دون الوصول الى جواب يقيني مطلق ، حتى بالنسبة لكريم نفسه . وبذلك يكون مطاع قد جسد ، وباعنف الاثارة ، ازمة الشبيبة العربية في محاولتها الكشف عن كنه وجودها ، وتخطيها في هذه المحاولة ، وهو الواقع الذي تعيشه الشبيبة اليوم .

✱

فلنا بانه ليس من الحاح علني على شخصية من الشخصيات بقصد ابرازها ، ولكن المؤلف مع ذلك ، عرض شخصياته بطريقة تجعل من السهل علينا ان نكتشف اهمية ملحوظة لبعض هذه الشخصيات . وهنا تبرز لنا « زاره » كاحدى الشخصيات الهامة في الرواية :

تلوح لنا « زاره » منذ البداية غامضة الى حد بعيد . فهي محاطة بجو صوفي الزمت نفسها به كل الانزام . كما انها فرضت على جسدها نوعا من القهر الارادي لتصونه من الدنس . ولكنها تسقط مع ذلك في النهاية . ومنذ تفتح وعيها في الدير ، وهي تشعر بتشوف للوصول الى يقين ما . . . هو في صميمه بحث عن الذات . والاسطر القليلة التي تلخص نشأتها الطفولية في الدير ، ومن ثم سفرها الى فرنسا والهند ، طلبا للمعرفة والتصوف ، لانكفي لتفسير هذه الشخصية الكثيفة التي تفرض نفسها على القاريء ، باعنف مما تفعل اية شخصية اخرى . بل ان هذه المعلومات ، هي اطر خارجية لها ، اكثر مما هي اثاره داخلية . وهذا الطابع السري الخاص بها ، يصبح بالتدرج ركنا اساسيا في البناء الروائي . وفيما يتعلق بنشأتها ، فهي ابنة لام هنغارية من اصل

ذات الطعم الفكري والروحي .

لقد كانت مشكلة زاره ، البحث عن حقيقة الذات والوجود . واعلانا عن بأسها وخبيتها في هذا البحث ، عادت نهائيا الى الدير لنختصم حياتها فيه .

★

أما « اليس » شقيقة زاره ، فقد كانت في حياتها على النقيض : لقد غمرت نفسها في الدور الذي احتلتها له احوالها الطبيعية باعتبارها فتاة غنية فقدت رقابة عائلتها على تصرفاتها . لذلك تمتعت بكل مايمكن ان تتمتع به فتاة جميلة غنية في المجتمع البيروني صاحب الترف . ومع هذا فان دورها اليومي الذي يؤديه ، يخفي وراءه دورا اعمق : ذلك انها تجاوزت كثيرا من المشكلات الوهمية التي تتخبط فيها فتيات هذا الجيل . ولقد قادها هذا التحلل المبكر من القيم الخارجية ، الى ممارسة حياة ادت بها الى السأم من اللذات ، ومن ثم الى التلذذ بهذا السأم حتى اصبحت حياتها رثاء دائما للقيم المفقودة . وبعثت هذا الرثاء ، حتى يصبح احتجاجا صارخا ضد الآخرين . ولكنها مع ذلك تجنح دائما الى فرض شخصيتها على المجتمع الفارق في قيم المظاهر المادية السائدة في مجتمعها . ان « اليس » لاتود ان تلقي تيمة وجودها على احد ، وهي تعتقد انها تسير نحو اهدافها دون اي وهم . ومع ذلك فان لها غرورها الانثوي ، خاصة وانها تحسب انها قد حلت جميع المشكلات النفسية والاجتماعية التي مازال جيلها من الفتيات ضحية لها ، بحيث تشله عن معاناة الحياة الحقيقية . كما ان لها غرورها الخاص لتقاء اختها زاره التي عجزت حقا عن مواجهة مسؤولية الحرية الجسدية ، التي هي الطريق الوحيد لامتلاك المرأة وجودها ، ولتحمولها بحريتها التامة ، حيث تصوف جسدها وتحرره من سلطة « الرجال » الآخرين الذين يعطونها قيمة مساوية لما فيها من شيق فحسب . ولكن « اليس » كانت ، وبصورة ضمنية ، تعتبر عجز اختها نوعا من التفوق عليها ، لذلك كان بلذ لها احيانا ان تعرض اختها لاغراء التجربة بين حين وحين . وبلذ لها ايضا ان تكون « شاهدة » على ازدواج شخصيتها وعلى تكوصها الاخير الى الدير : فهي تتابع حياة اختها لتضبطها بامرير يديان زاره وبعثان الرضى في نفسها . اولهما : التكوؤ ازاء دعوة الحرية . والثاني : هو ان يكون تكوؤ زاره خضوعا لنوع من العجز الوجودي ، اكثر مما هو ارتباط وتعلق بمثل اعلى .

ان « اليس » وزمرتها من الشباب والفتيات ، قد تمثل بصورة واقعية حياة فئة كبيرة من الشباب الضامعين في بيروت ، والذين قد اختاروا الثورة السلبية التي تأخذ طابع التمرد ، كتصبير عن ضياع الانسان المعاصر . اذ ليس لدى هؤلاء الشباب أي هدف اجتماعي او قومي او انساني . وهم بالوقت ذاته ، يرفضون كذبة محيطهم التقليدي عندما يزعم الارتباط بحضارات اخرى ، متبرئا من ارضه الخاصة . ولعل نموذج اليس وجماعتها يعطي التفسير الوجودي الحقيقي لمشكلة الجيل الضائع في العالم العربي عامة ، وبيروت خاصة . . وذلك بين ابناء طائفة معينة، ومن طبقات مترفة ، حيث يفرق افرادها في حفلات صاخبة تستباح فيها القيم ! هذه الحفلات التي بدأت تفزو المدن العربية الكبرى . وهي صورة نمردية ، كبديل عن الثورة الحقيقية التي هي قدر الجيل العربي(1) ان هذه السلوكية ، هي نوع من التبني المذهول لحضارة غير حضارتنا ، ولا يمكن لروائي عربي ان يغفل هذا الجانب من حياة الجيل، ان كان يريد تصويره في ازماته المختلفة .

★

الى جانب زاره واليس ، هناك « مادو » المرأة الاجنبية و « حنان » الفتاة العربية . وهما كبقية ابطال الرواية ، تواجهان القضية المطروحة دائما : البحث الدائب عن الحقيقة والذات : الحب - العلاقات الانسانية - الخلق - الثورة . وهو بحث يمسك كل شخصية من الداخل ، سواء

(١) هذا رأي صديقنا مطاع . ولكننا نخالفه الرأي . وسوف نعرض ذلك في مقال قادم قريب .

بصورة علنية مباشرة ، او بطريقة خفية غير مباشرة ، ولكنها تلمح خلال السلوك .

ان « مادو » كغيرها من الشخصيات ، رمز لافق حضاري وجودي واسع يكمن وراءها . وهي في رأينا اغنى رموز الرواية ، باستثناء كريم . وقد اهتم المؤلف اهتماما واضحا ، حيث تعطينا لنا الرواية في جزئيات حياتها اليومية ، وفي علاقتها مع كريم و « مينو » زميلها الليلي في الملهى . بل ان المؤلف تقصى حياتها الماضية فانار مساحة واسمة من ماضيها ، خلال طفولتها وفي بدء عملها الفني كراقصة باليه . ان مادو رمز لحضارة الغرب اللتقية بالشرق على شواطئ بيروت . حتى « كريم » يقف منها موقفا مقابرا لموقفه ازاء الفتيات الاخرات : ان « كريم » الذي يتردد كثيرا في موقفه الصارم « اعادة النظر » لتقاء الاخرات ، لايعاني مثل هذا التردد في علاقتة مع مادو . بل ان اسلوب الرواية الفني يعطينا عودات متكررة الى مادو خلال كل موقف حاسم في الرواية . فهو يعود اليها بعد كل التقاء مع زاره او اليس ، او الاخرين . وبالإضافة الى ذلك ، فاننا نرى «كريم» مع مادو ، مستسلما لطمانينة لا اثر فيها لقلق خارجي .

لقد كانت مادو تعيش وكأنها امتلكت جسدها فعلا ، ونزهنه عنن الاوهام القيسية التي تعتبره خطيئة ، واتجهت في مطلع حياتها الى رقص الباليه . وعندما خاب املها في تحقيق مثلها ، تحولت الى الملاهي الليلية حيث يصبح الرقص ابتذالا للمعنى وللجمال ، في الروح والجسد معا . ان مادو بذلك تمثل جيل الشباب الغربي الذي انتصر على اوهام وجوده وحاول ان يعيش حياة انسانية حرة ، منزهة عن الاكاذيب الاجتماعية والسياسية ، متجها بذلك الى تحقيق قيمة مطلقة للانسان . لذلك لم يبق امام الشاب الغربي سوى موقف فردي متازم ، هو ان يصون كرامته وبرائه الذاتية في عالم هو ضد الانسان . ولقد جسدت ذلك مادو وهي منغمسة في الحياة الليلية في بلد عربي ، حيث تقاوم كل محاولات زبائن الملهى والاغتياء ، لشراء جسدها . وهذه المقاومة لها معنى اخر غير

صدر حديثا

مع الإمام علي

من خلال « نهج البلاغة »

دراسة مستفيضة عن عبقرية الامام علي
كسياسي وحكيم من خلال خطبه ورسائله التي
تتضمنها كتابه الخالد « نهج البلاغة »

تأليف

خليل الهنداوي

منشورات
دار الآداب

مباشر ، هو ، اداة طبقة عربية كبيرة ، طبقة كان ههما الوحيد ، ولا يزال ، البحث عن اللذات المحرمة او المنوعة في بعض مفاهيم الوجدان العربي . وهي لذات فقدت كل قيمتها الانسانية واصبحت لاتفصح الا عن موقف حيواني صرف . لذلك فان رفض مادو لتجارة الرقيق الابيض، وخوفها من الوقوع ضحية لهذه التجارة ، هو رفض لامتهان الجسد بهذا الشكل اللانساني . انه يشير الى الفارق الواسع بين موقف الحضارة الغربية من قيمة الجسد والجنس ، وبين الشبق المستور المتفجر عن كبت ساحق ، خلال تاريخ طويل لدى الجبل العربي .

ذلك ان وهم المثلى الأعلى لدى هذا الجيل ، مازال يعده عن الاعتراف بدور الجنس ، وبكونه امتدادا طبيعيا وتنويجا للعلاقات الانسانية بين الرجل والمرأة . فانصرف ، نتيجة لذلك ، لاختلاس لذته الجنسية بأسوأ الاحوال والاساليب ، الامر الذي فاده الى ازدواجية مريضة في سلوكه الفردي .

ان تعرف مادو بكريم ، جاء في اللحظة الفاصلة وهي على حافة ياسها ازاء ضغط الواقع الجنسي البهيمي لزبائن الليل . في لحظة اوشكت ان تتخلى فيها عن ظهرها الفردي ، وتستسلم لاي عابر . ان حالة مادو هذه ، تعتبر جزءا اساسيا من مشكلة كريم ، وهي ان يلتقي بالمرأة تفخر بجسدها ولا تدل به . لذلك رفض دعوتها في الليلة الاولى وهذا مامهد بعد ذلك الى قيام علاقة صميمية بينهما . لان « كريم » كان يعتبرها مالكة لحريتها في بؤرة الفساد واللاحرية ، وهذا مادفه لان يلجا اليها انسر كل موقف يخيب فيه ، في قشع حجب الكذب والاهوام لدى الفتيات الاخريات ، خاصة « حنان » تلك الفتاة التي استبدلت ثورتها الحقيقية بتحرر خارجي مصطنع . والواقع ان مادو من جهة وحنان وزاره من جهة ثانية ، يلعبن قطبي الازمة في قضية الجنس كما تطرحها حضارة الشرق والغرب :

مادو تمثل حريد الجسد في قلب الفساد والقدارة والانحلال . اما زاره فانها تمثل سحر الوهم الاثير على بعض قيم الحضارة العربية التي تربط الشرف بالجنس ، وتدفع الفرد العربي ، والمرأة خاصة ، للانكفاء على الذات وفهر الجسد . بينما تمثل حنان ، الجيل العربي في ازدواجه المنمزق المريض : الاتفماس العلني السطحي في الثورة العامة ، والخوف من مواجهة الثورة الحقيقية في اعماق النفس والفكر .

ان « نائر محترف » تعبر عن هذه الاتجاهات ، لترسم لنا صورة واضحة لواقع الجيل العربي : فعندما يخيب في تجربة الانفصال عن محيطه لكشف اوهام وجوده ، فانه يسير في طريقين : ١ - انحلال السلوك ، مقلدا بذلك الغربي في سلوكه الظاهري . ٢ - او الإرتداد الى حجب الوهم والعادات والتقاليد المتوارثة .

تلك هي الشخصيات النسائية في الرواية ، وسوف نتابع بمصغ شخصيات الرجال :

« سمير » احد اشخاص الرواية الذين لهم اهمية ملحوظة بالنسبة للآخرين . نراه يبحث عن اصالته ومعنى وجوده بين مختلف الاهداف الفردية ، وذلك قبل ان يشترك في الثورة التي يجد فيها نوعا من الوجود المبرر ذي الاتجاه البطولي . انه يود ان يكون شيئا ما ، ان يثبت فردية من نوع خاص ، وهو المطمح الذي يلاحق كثيرا من الشباب ابان فتتحهم على الحياة . والحب ، هو المحور الذي تدور حوله هموم الشباب وخيالاتهم عندما يكونون بدون اهداف ، من اجل تحقيق الاهمية الشخصية واثبات الوجود . وهكذا نجد « سمير » يتحدث منذ الصفحة الاولى في الرواية عن حبه لاحدى زميلاته .

واذا رجعنا الى ماكتبه الاستاذ الصفدي في مؤلفه الفكري « الثوري والثوري العربي » عند تحليله للانسان الثوري ، وجدنا انه يعطي ثورية المراهق دورا هاما باعتبارها تؤلف القاعدة الاولى لكل ثورة قوميسية او اجتماعية او فكرية ، الامر الذي ينطبق على سمير ذلك الانسان المنكفيء على ذاته والباحث عن معنى في تنقله بين الكتب او شغفه بالموسيقى او في محاولته تعلم العزف على البيانو او في حماسته لدراسة الماركسية .

انا نلمح في هذه المحاولات شخصية ظائمة للكون ، تتوق لتحقيق شيء ما ، يعين هوية الشخصية ويحدد ابعادها . وحتى عندما يشترك فسي الثورة ، تكتشف انه لا يستطيع ان يطمئن الى انه عثر على هدفه . انه يقول لكريم :

« بودي لو اعلم نهاية كل هذا . لانظر الي هكذا .. انا لست بطلا على كل حال . لقد وجدت نفسي فجأة وسط كل شيء . قل لي ، صارحتي . نحن نستطيع ان نبرر الثورة ككل ، فنجد لها اسبابها وعللها، ولكن لماذا أتور انا وانت وكل اخر ؟ هناك مبررات عامة لاشك فيها ، غير انني اريد ان اعرف انا لماذا حقا أتور . لماذا لا احس ، لا احس باعماقي انني ثوري ، ثوري حقيقي . »

« اصخ الي ياكريم ، انا لا اعرف كيف اقتل ، لقد سرت الليالي الطوال على دروب الاسفلت وانا افكر ، افكر كيف اتخلص . كنت ابحت عن نمة خلاص حالي . لم يكن الحب هو مشكلتي ، رغم انني عجزت عن لمس اية امرأة »

من هذه الفقرات نلاحظ عنصرا رئيسيا من عناصر مشكلة سمير . الشعور بفراغ وجوده ، والرغبة في معرفة الذات : اريد ان اعرف لماذا حقا أتور ! ولا تخرج الشخصيات الاخرى عن ذلك :

غيث - الاخ الاول لسمير ، يريد ان يثور ويحطم التقاليد . ولكن ثورته لا تتعدى محاولة الزواج من فتاة مسيحية . بينما فؤاد ، الاخ الثاني ، مشغول بتحليل النفوس واكتشاف الامراض .

تعقيب :

القاع الذي بنيت عليه الرواية ، هو القضية القومية للمجتمع العربي . وعن هذا الطريق عرض لنا مطاع مشاكل الجيل العربي من الشباب : القومية والاجتماعية والفردية . وقد كان ناجحا الى درجة كبيرة في هذا العرض . ولكن مشكلة الشبيبة العربية - في رأيي - هي ، وبالدرجة الاولى : مشكلة وجودية . أي التساؤل الملح عن معنى الوجود ، ومن ثم البحث عن الذات ، (من اكون ؟) وتحقيق هذه الذات « ماجسدوى عملي ؟ » .

ان تحقيق الذات وترسيخ جذورها في الوجود ، هو الهم الدائم لهذه الشبيبة ، لذلك فان انغمارها في القضايا القومية ، واخلاصها العنيف لها ، هو وسيلة اكثر مما هو هدف . انه وسيلة لربط الذات بقضية كبرى تسمو على المشاكل اليومية النافهة ، خلاصا من التجوف الداخلي ومن حس النغه ، بغية ارتكاز الشخصية على ارض صلبة ، ولاعطاء معنى للوجود . واذن ، فالازمة الحقيقية هي : النزوع الدائب لربط الشخصية بعلاقات انسانية صميمية ، ولربطها بقضية يمكن للفرد العربي ان يطمئن على انها هدف له . ولما كانت القضية القومية بالنسبة للمجتمع العربي ، اكثر القضايا شمولا واهمية ، فقد اتجه لها جيل الشباب ، ليرتفع بنفسه الى هذا المستوى الوجودي العظيم ، على الصعيد القومي ، وتلك هي مشكلة شخصيات الرواية ، خاصة الشخصية الرئيسية « كريم »

ان المؤلف - سواء فعل ذلك بصورة شعورية او لا شعورية - اعطى امتياز ملحوظا الى « كريم » فهو يحتل المساحة الكبرى من الرواية ، وهو القطب الذي تدور حوله الشخصيات والاحداث : من الناحية القومية والشخصية على حد سواء . فالشخصيات كافة ، تسير بوحى منه ، ظاهر او خفي . او - على الاقل - هو الذي يؤول سلوكها وتفكيرها حسب هواه . هذه ناحية - اما الناحية الثانية ، فتظهر لنا في الشخصيات النسائية ، حيث نرى انها تقف موقفا ايجابيا منه ، وله علاقة بهن دون استثناء . وهذا امر له مفزاه الواضح من حيث مشكلة تحقيق الذات .

الشخصية الوحيدة التي تقف موقف المعارض او الندد ، لكريم ، شخصية الاستاذ « بول » ولكن المؤلف لم يظهر لنا هذه الشخصية بالقدر الكافي ، بحيث تقف بصورة فعلية موقف الندد الحقيقي من كريم . فهو لم يخصص لها سوى صفحات ضئيلة من الرواية ، كما انها لم تلتق بكريم الا في موقف .. انتهاء المؤلف بسرعة ، وكانت الفلبة فيه ، ضمنا ، لكريم .

صليب اللب

ما زال قرص « برسيوس » ابلها يحز في أوزدة السماء
تقذفه الحرباء تعفر الرماد تشمل الصفا بلا ضياء
وجيشها الاورد لا يستطيع ان يلوك غير القفر والهباء
تصفر في عروقه وصلبه تنز من عيونه الدماء
يخاف من سلاحف الطريق . يحتمي بنا يلج بالدعاء
سلاحف التاريخ في الوصول تهذي، تنفري، وتلعن القضاء
لما انبرينا نرتقي « جلجلة » ونقهر الفيضان والبغاء
بحت: مضوا ليصلبوا الاب، ارجموهم مز قوهم، امطروا بلاء
ايصلب الاب الذين قدموا ضلوعهم لجده عطاء؟؟
وفجروا عيونهم مناها للجيل - نسل الصمت - للظماء
.. ويسرع الركب يشك الحوت يطلي السن الجردان بالفراء
يقتنص العاج من الافات (من اشداتها) ويسلخ الفراء
بيننا تئن عصابة الحرباء ، تكبو ، تشرب القطران والوباء
تغل في عيونها الديدان .. تنخر الحياه .. تسفح الصفاء
وتضحك السلاحف المعجفاء: هاركب صليب الاب في الفناء
دأرت رحاه تطحن اللاشيء امس فانظفا .. لا كنز لا علاء
- ما مات من تحجرت سفينه وصدت الصخور والهواء
قد عاد يحيي الجيل، يدعو الرضا ان يحرر النجوم والسناء
يرك تل المغنطس الصائد السفائن الكشار توتياء
لن يجذب المسمار من قعر السفين اليوم، لن ينسحب الفطاء

أحمد دحبور

حمص

١ - كان برسيوس يقصد - عندما قذف القرص - ان يظهر براعته
وقوته . لكن القرص اصاب جده فقتله

اما من الناحية القومية ، فهو محترف ثورات ! أي له ماض قومي
عريق ، والجميع يرجعون اليه ويستمدون الراي منه ، حتى ليبدو وكأنه
قائد قومي للجميع .

كل هذا يسمح لنا بتأكيد رأينا السابق ، بان مشكلة الشبيبة
العربية مشكلة وجودية : انها مشكلة الشعور بالاهمية الفردية وتحقيق
السدات .

« الرواية ، كعمل فني »

من عادة الكتاب ، المحافظة على وحدة الرواية : تسلسل الزمان
والاحداث . ولم يخرج الكتاب على هذه القاعدة الا منذ عهد قريب ،
وعند نفر قليل . حيث عدلوا عن العمل العقلي في ترتيب الرواية ، الى
الفعالية الطبيعية للشعور . وكان من جراء ذلك ، تبدل مفهوم الزمان،
الذي استتبع بالضرورة تبدل عرض الاحداث : ان حوادث الحياة « تقع »
ضمن التسلسل الزمني المعروف ، المحدد بالتواريخ والارقام ، ولكن عندما
يتخيل الانسان هذه الحوادث ، فانه لا يتبع نفس التسلسل الذي وقعت
فيه . فهو ينتقل من حادث لآخر دون التقييد بزمان الحدوث ، وهذا
ماقصدهنا بقولنا : الفعالية الطبيعية للشعور . وقد اعتمدت الرواية
المعاصرة هذا الاسلوب في عرض الحوادث ، فهي ، بدلا من ترتيب الحوادث
حسب الواقع ، عمدت الى مطابقتها مع الخيال . وهو الاسلوب الذي
اتبه مطاع في « نائر محترف » .

والخطر في هذا الاسلوب ، ان يستسلم الكاتب نهائيا لفعالية الخيال
الحر ، فتصبح الرواية مليئة بالفجوات التي تجعلها اشبه بالخواطر .
ولقد كان مطاع بنجوة من الوقوع في هذا المزلق ، فهذا الانتقال الذي
نلمسه في الرواية ، من حادث لآخر ، ثم العودة الى حادث اخر ، أقول :
ان هذه الانتقالات المتكررة عبر الحوادث ، كان فيها من البراعة ، بحيث
لم نلمس اية فجوة في الرواية . وهذا يدل على تمكن اصيل في العمل
الروائي .

ولكن الميزة الكبرى لمطاع ، قدرته الخارقة على وصف المكان - وهي
ميزة لم نجدها ابدا عند كاتب اخر : عربي او اجنبي . فعندما يصف
مكانا ما .. فانه يخلع عليه ظلا اناسيا ، حتى ليبدو لنا هذا المكان
وكانه « حي » فعلا :

« كانت جميع المخازن التجارية مغلقة ، والوحشة في الشوارع
تتصاعد من وجوم الاحجار ، واصفرار الابنية وجومود النوافذ المغلقة .
وكانت بيروت بدون خضرة .. لم تعرف شوارعها زينة الاشجار . ولا
حوت كئنها البشرية على بقع من حدائق . وكانت بيروت بعد الظهر من
ذلك اليوم .. مكدسة بدون تنفس ، وقد بدأ كل حجر بالريبة من حجر
يلتصق به منذ الازل . ومن قلب هذا التكديس ، كانت تفجرات بركانية
صماء تمزق وحدة الصخر والتراب والانسان . وكنت وحدي اصفي
الى الدوي المكبوت . وانظر الى الوجوه النظيفة حولي ، فلا ارى فيها
الا وجها عاليا ينتمي الى كل مكان ماعدا المكان الذي تتمزق فيه هذه
التفجرات الدفينة » .

★

من الملاحظ اننا لم نتعرض بشيء الى ماخذ الرواية ، والسبب في
ذلك ، انها ماخذ يسيرة لا تشكل تجريبا فعليا للرواية ، ولا تنتقص من
قيمها الحقيقية . فالرواية تحتفظ بقيمتها .. بكونها تؤرخ للجيل العربي
المعاصر ، وتصوره في مشكلاته الوجودية والقومية والاجتماعية علسى
السواء . وهي ، فوق ذلك ، عمل فني فارب حدود الكمال .

محمد حيدر

دمشق